ذاكرة الآداب

في هذه الزاوية، تفتح الآداب نفسها على ذاكرتها، فتعود إلى ماضيها، تكشف مفارقه، وعلاماته المضيئة، وهناته، وملامحه، وآماله، وإحباطاته. وإذ تعود إلى ذلك الماضي، فإنّها تسعى إلى وصل أجزائها، بالاغتناء من تجاربها، دون أن يعني هذا بالضّرورة إيثارَ ما سلف منها على ما خلف، ولا جلْد ذاتها على ما قصّرتْ في القيام به أربعين عاماً أو تزيد.

إن ذاكرة «الآداب» ليست إلاّ ذكريات جيل عربيّ على مشارف القرن الحادي والعشرين، يكشف أيّامه الماضية ـ بما فيها من عزيمة وشباب وأحلام وجموح ونجاح وإخفاق ـ على خلفه أو مجايليه الجدد. وقد يُعلّق صاحب المجلّة أو مدير التّحرير أو طرف ثالث على بعض ما جاء فيها، نقداً أو نقضاً أو تثميناً أو إضاءة. وسوف ترصد «الذاكرة» أهمّ القصائد، أو المقالات، أو القصص القصيرة، أو الأبحاث النّقدية، أو التمثيليات القصيرة، أو النّصوص الشّاعريّة، الّتي كان لها وقعٌ في السّاحة الثقافيّة العربيّة آنذاك، أو صار لها مثل هذا الوقع اليوم.

شارك المرحوم جبرا إبراهيم جبرا مجلة **الآداب** في مسيرتها منذ سنتها الأولى. وظل يتابع الإسهام فيها، بين الحين والحين، بمقالاته ودراساته وقصصه، وإن كان قد انقطع أكثر من عشرة أعوام، منذ عام ١٩٥٥، عن الظهور على صفحاتها. وربما كان ذلك بسبب أنّ مجلة **شعر** التي صدرت في تلك الفترة، قد اختطفته من **الآداب**...

والجدير بالذكر إن المادة الأولى التي نشرتها المجلة لجبرا، في العدد السادس من السنة الأولى ١٩٥٣، «هكذا تمرّ بنا الأعوام» يمكن اعتبارها من «قصائد النثر»، بالرغم من أن المجلة لم تصنّفها في هذا الباب. غير أنّ المجلة تحكم على المادّة التي تختارها بمنظار القيمة والجودة وحدهما، وقد حكمت آنذاك بجودة ذلك النصّ الذي نشر افتتاحية في ذلك العدد.

على أن ما يجعل لجبرا إبراهيم جبرا قيمته العظمى إنما هو فنّه الروائي والقصصيّ. وقد اخترنا له في **ذاكرة الآداب** إحدى قصصه الأولى التي نشرت في المجلة في العدد العاشر من السنة نفسها ١٩٥٣، أي منذ اثنين واربعين عاماً، وهي بعنوان «أصوات الليل» وقد أرسلها لنا من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة. وقارئ هذه القصة سيكشف بلا ريب «هموم» جبرا إبراهيم جبرا الأدبية، سواء من حيث الموضوع أو من حيث الشكل. فهذه القصة تطرح مشكلة أساسية هي مشكلة «الهوّية» العربية وارتباطها بالنضال، ولا سيما من أجل فلسطين، وهي المشكلة التي لا تزال حتى اليوم، بل أكثر من أي يوم مضى، تشكل الهمّ المركزي والقضية الأولى في الحياة العربية؛ فكأنّ جبرا كان يرهص بمسيرة الأمة العربية وما ستواجهه من المآسي... وذلك بأسلوب شديد الإمتاع ولغة بالغة الإشراق.

«الآداب»

أصوات الليل

جبرا إبراهيم جبرا

«إن تعظمك النساء....» بدأ عدنان، ثم تنحنح ليجلو حنجرته وأرسل نظرة لها معناها في الحلقة الصغيرة من الشباب الجالسين حوله. وقد أضاء وجهه وتوترت عيناه واتسعتا. فأدركوا في الحال إنه يبغي أن يتلو آخر ما نظم من الشعر. كان «الكازينو» المطل على دجلة يكاد ينفتق بمن فيه ويبح باللغط والضجيج. والاستكانات ترنّ، والنرد يطقطق، وقطع الدمينو تقع على الموائد في طَرقَات متعاقبة، والراديو يعلو بجئيره فوق الجميع.

ولكن حلقة عدنان سكتت لتصرف عن آذانها ما استطاعت كل صوت سوى صوته، وقد علا كصيحة فوق هدير البحر، ويمناه بأصابعها الممتدة تعلو وتهبط بايقاع:

«إن تعظمك النساء....»

ولا أذكر أبيات قصيدته بالنص، ولكن لن أنسى فحواها. وهو أن النساء يعظمنك رمزاً لشهواتهن، لكي يصلبنك يوماً على نخلة وفمك فاغر لغبار الهاجرة. فيسكبن الخمر على قدميك، ثم يأكلن عينيك ويندبن شفتيك لأن ليس من يقبلهما، ثم يرقصن حول أوصالك وهن يقطّعنك عضواً عضواً، ويسكبن الخمر من جديد، ثم يفرغن مثاناتهن، فينمو الشوك حثلاً حول بقاياك.

فهتف حسين: «عظيم! أعد، بالله أعد!»

وبصوت أشد اهتزازاً من قبل ـ وكان صوت عدنان إحدى خدعه المسرحية، فهو يقول: ما نفع تلاوة الشعر إن لم تكن درامية أو أشبه بصوت الوحي؟ ـ أعاد عدنان تلاوة قصيدته.

فهز عبد القادر رأسه، وهو شاب طويل الشعر ضامر الوجه، له نظرياته في كل أمر من أمور الحياة، من الشعر إلى الثورة، وقال: «ولكنها ملأى بالمرارة».

فأجاب حسين: «أما أنا فأقول ليس فيها مرارة كافية. تذكّر أن عصر الورود والفجر الندي قد راح وولّى. إننا نريد شعراً خشناً آكلاً يستفز سامعه بل يغضبه.»

فقال عبد القادر، والغليون بين فكيه: «أخشى أن ليس في ذلك إلا وقفة المتظاهر. وذلك يعني أن مثل ذلك الشعر كاذب».

فقال عدنان: « كاذب، كاذب! أليست فيه خلاصة لمئات الاختبارات الإنسانية؟ قد تكون أنت صاحب هذه الاختبارات أو غيرك. هل لذلك أهمية؟»

قال عبد القادر: «أقصد أنه كاذب لأنه ليس صحيحاً بالنسبة إلى الحياة».

ـ وما الصحيح بالنسبة إلى الحياة، أرجوك؟ الحكمة المملة التي تملأ الكتب القديمة؟ واقعية الروايات المعاصرة؟ قيل: أعذب الشعر أكذبه. وكان الأفضل لو قيل: أصح الشعر أكذبه. فقد مرت القرون الطويلة على شعرائنا وهم يبتدعون أكاذيبهم من أجل «العذوبة»، أما أنا فأوثر ابتداعها من أجل الحقيقة. وما الرموز إن لم تكن أكاذيب كبيرة تبتدع لخدمة الحقيقة؟ وبما أن حقيقة الحياة هي المرارة والقذارة والخيانة والشر ـ وهل كان لأحد من شعرائنا «العذبين» الجرأة للاعتراف بذلك؟ ـ لن تكون إلا المرارة غاية «الكذب ـ الحقيقة» في الشعر. إني أدع الورود وندى الفجر لك.

فاشتدت شفتا عبد القادر وبدت فيهما القسوة: «ومن يريدها؟ إن ما أريده هو الفن للشعب وعن الشعب. أريد من الشعر أن يكون صوت المجتمع، لا شطحات أفراد معتوهين. على الشاعر أن يقلق على أمراض أمته ويجد لها العلاج».

وقال كريم: «يجب أن يسترشد بمبدأ سياسي، فيستطيع حينئذٍ أن يكون مرشداً للشعب».

فتأفف عدنان قائلاً: « أعرف نظرياتك كلها».

وأضاف حسين: «الثرثرات المعهودة».

فقلت: «إني أميل إلى الاتفاق مع عدنان. فقد كان للإنسانية منذ أقدم العصور أنبياء ومعلمون دينيون وقادة سياسيون لينصحوها بما تفعل وما تتجنب وإلى أين تذهب، ومع ذلك فإن الإنسانية ما زالت في حالة محزنة. ولست اعتقد أن الشعراء سيوفّقون في ذلك أكثر من غيرهم. فلنسمح لهم إذن بخلق المتعة لنا، إذا لم يستطيعوا خلق أي شيء آخر. فلعل البشر عن طريق المتعة يبلغون من نعمة الله ما لم يبلغوه من قبل».

فأضاف عدنان: «المتعة بالمرارة».

فقال عبد القادر: «أريد فهماً، لا متعة. فإذا جاء الفهم عن طريق المرارة صفحنا عن المرارة نفسها. ولكن يجب أن نضع المرارة في خدمة مجتمعنا: يجب أن نستهدف الخلق عن طريق الهدم. والمشكلة هي كيف نفعل ذلك».

كان لعبد القادر عينان كبيرتان عميقتا المحجرين، يظلل أسفلهما هلالان من الزرقة. وخداه العظميان وفكاه المربعتان توحي بشكل جمجمة حية. وكل شيء عنده «مشكلة» يجب معالجتها لغرض معين وبدون رحمة. وكلما فاه بعبارة، التمع في عينيه بريق يضطرب له جليسه. وراح يقول: «إن مشكلتنا هي كيف نستخدم الفنون في قضية الفقراء وأشباه الجاهلين. لم يقض على أدبنا إلا هذه الفردية المفرطة العقيمة في أدبائنا الذين يتنكبون عن الجماهير».

فأجاب عدنان: «أما أنا فأعتقد بنقيض ما تقول. لا أظن أن في أدبائنا فردية كافية. أنهم على الأغلب عموميون، مرتخون مائعون، وهذا بالضبط مايريده جمهور ليس له من القراءة والكتابة إلا النزر اليسير. بل إن أكثرهم يحاول أن يعلّم ويرشد، ولكن تعليمه من اسخف ضروب التعليم. وهم لا يتنكبون عن الجماهير: كل ما في الأمر هو أنهم يعتقدون أن الارتفاع بالشعب لا يجيء، في هذا العصر الوثاب، إلا عن طريق أحياء الفكر القديم. ولهذا تراهم يَلغُون بكل ما هو رث وبال. ولا يكتفون بالعلماء الذين من وظيفتهم أن يخترقوا طبقات القديم، بل يحثوننا جميعاً على الاقتداء بهم. فهم يخلطون بين الهواية التاريخية والفكر الابداعي. وهذا السبب في أنك لا تستطيع هضمهم. وكلنا لا نستطيع هضمهم، وها هم شيئاً فشيئاً يغلفهم السكون والحمد الله، فذلك خير لهم. أما الأدب الوحيد الذي يستطيع البقاء، فهو ذلك الذي تخلقه أذهان حظيت بسهم وافر من الفردية».

فقال عبد القادر في شيء من الحنق: «ليس الأديب من هؤلاء إلا بهلواناً بين جمهور من الكسحاء. إننا لا نريدهم. إننا نريد أناساً يعرفون كيف يستفيدون من أعضائهم ليعلّموا الآخرين كيف يستفيدون منها. والمشكلة بالطبع ليست مجرد مشكلة أدبية».

فردد كريم كالصدى: «لا، إنها ليست مشكلة أدبية صرفاً. إنها سياسية».

فقال حسين: « الثرثرات المعهودة! فكلما ذهبت إلى الماخور بقصيدة إلى سميحة، وجب عليّ أن أذهب إليها برسالة سياسية. ها؟ إنني أفضل أن أذهب إليها، كما أفعل دائماً، ومعي قصيدة عنها. ولكنني لا أمسها مطلقاً، لأنني أعتقد أن السيلان والمعدة الخاوية لا يتفقان كثيراً. كلّ ما هناك هو أنني أنفعل بالجمال والشفقة، ويلذ لي أن أرى لعنة الشر تنهش رونق الحياة. لا أكثر ولا أقل».

فقال كريم: «إنك انحطاطي يا حسين!»

ـ أنا انحطاطي؟ طبعاً، طبعاً. ألست أقيم في بيت كالقصر؟ أو ليس عندي طاهيان وثلاثة خدم وسائق سيارة؟ سيارتي «الكاديلاك» من موديل السنة القادمة، ولي أربع خليلات. طبعاً أنا انحطاطي!

فضحكنا جميعاً. حتى عبد القادر ابتسم، ممسكاً بغليونه بين أسنانه.

وقال عدنان: «إنك تستحق استكاناً آخر من الشاي على هذه النكتة. بوي!»

فقفز نحونا الخادم، وهو غلام مشدود الجسم، أشعث الصدر يكشف قميصه الرث عن صدره، وفي زاوية فمه عقب سيجارة. «استكاناً آخر من الشاي، وليكن من أحسن ما عندك!»

«حاضر عيني!» قال الخادم واختفى في حشد الجالسين وإذا عدنان يهمس إليّ: «رأيتك مرة أخرى. مالك تكرر النظر إلى ساعتك؟»

قلت: «أنت تعلم أنني مدعو للعشاء في بيت سلمى الزبيدي هذا المساء».

قال: «مازال هناك متسع من الوقت. إنها ليست الثامنة بعد. وفي وسعك أن تمشي إلى بيتها في عشر دقائق».

قلت: «أعرف، أعرف...»

كان قد انقضى شهر منذ أن قابلت السيدة سلمى الزبيدي لأول مرة، يوم طلبت إليّ أن «أثقف» ابنة أختها سلاف الصفوي، باعطائها درسين في الأسبوع. وقد تركتْ سلمى دعوة خطية للعشاء مع سلاف لتعطيني إياها. ولما سألت تلميذتي أذاهبة هي أيضاً للعشاء عند خالتها، ضحكت، أجل ضحكت كأن سؤالي يبعث على الضحك، وقالت: «إنني أسمع عن حفلات العشاء وأقرأ عنها، ولكن ذلك لا يعني أنني أشترك فيها».

ـ لماذا؟

ـ لأسباب ظاهرة.

ـ أ... في الواقع لم تخسري شيئاً.

ـ من يخسر شيئاً لم يحصل عليه قط؟ ولكن أصحيح أن في هذه الحفلات يتكلم المدعوون بالتلميح وأن... دسائس الحب تنتعش؟

ـ ذلك أمر مبالغ فيه جداً.

ـ لا أدري، ولكن ليتك تحضر إحدى حفلاتنا النسوية. إن المرء ليظن من حديث النساء حينئذٍ أنه ليس في الدنيا شيء سوى الحب.

سرني أن أراها تستطرد، ولو قليلاً، عن النحو الإنكليزي الذي كنت أدرسه إياه، غير أنني لم أكن مستعداً للبحث معها عما إذا كان في الدنيا شيء سوى الحب. فصرفت الموضوع بضحكة مني لم تستجب لها سلاف، وعدنا إلى الدرس.

أما الآن، فالظاهر من حديث جلسائي أن هناك أشياء أخرى تشغل على الأقل بال الشباب. فالمسألة الخطيرة عند عبد القادر (وهو يدخن غليوناً لأنه، كما يقول، أرخص من السجائر) هي مسألة الفن للشعب بعد القضاء المتوقع على «غير المرغوب فيهم» سياسياً في البلاد. ولكن كثيراً ما كان يسئمني في مثل تلك الحلقات أن أراهم يثورون ويتشاجرون لآراء أولية. وكنت في شيء من إرهاق الإرادة أضع نفسي مكانهم لأذوق نشوة اكتشاف آراء كتلك لأول مرة، فقد كانوا كمن ينظر إلى دجلة ثم يهتف فجأة: «أنظر! إنه يتحرك! وفيه سمك يعوم!»

راح عبد القادر يستفيض في الحديث عن الكتابة، قائلاً إن القصص يجب أن تستقى جميعها من حياة المعدمين والمتسولين والمجرمين، لكي تكشف عما سمّاه بالتفسخ والنتن في وسطنا. وإذا الجميع فجأة يصرخون فرحاً عند مرأى توفيق وهو مار بالمقهى ويدعونه إلى الجلوس معنا. لم أكن قد رأيت توفيق من قبل، وهو دون الثلاثين بقليل، نحيل، ذو عينين ضيقتين حادتين اشتبهت في أنهما زرقاوان، وكان لابساً عقالاً وعباءة بدوية، وحالما عرّفت به، فتح أطرافها وكشف عن حزام للرصاص يلبسه تحت العباءة (كأنه قد وصل تواً من معركة) وقال: «هذا فخري وعاري!»

فقلتُ: «إنّه في غاية الروعة».

فقالَ فخوراً: «إنه في غاية الروعة، ولكني كلما لقيت أخاً من فلسطين أدركت أنه من العار أن ألبسه هنا، لا في جبهة القتال في فلسطين».

فأثر كلامه فينا جميعاً، وقد أدرك هو ذلك، ثم جلس وحييناه من جديد، وطلبنا له شاياً.

ويبدو أن كريم، وهو الظل الهزيل لعبد القادر، كان يعلم ما الذي يستفز ضيفنا، إذ قال: « كنا نتحدث عن الأدب والشعب».

فضحك توفيق قائلاً: «يسعدني أن أراكم، كلما عدت من مضارب العشيرة، ما زلتم تتكلمون. ليس هناك مثلنا في الكلام».

ـ كنا نتكلم عن الكتاب والشعراء. ويعتقد عبد القادر أن قصصنا يجب..

ـ أعرف، أعرف، ولكن هناك شيئاً واحداً لن تتعلموه. وهو أن القصص والرسم والموسيقى، إلى آخر ما هناك من خزعبلات حياتكم الخانعة، ليست إلا من اختلاق المدنيّة».

ولم أفهم مرماه فسألته في براءة تامة: « أتظن إذن أن علينا أن نشجعها أم لا نشجعها؟»

فأجاب توفيق: «لا حاجة بكم إلى تشجيعها، لأن المدنيّة ستفعل ذلك مهما حصل. ولكنك تعلم أن المدنيّة تعني التقهقر؟»

ـ آه؟

ـ إنها تعني المرض، الفساد والفن نتيجة هذا الفساد، إنه الغاز السام الذي ينفثه هذا المستنقع الفسيح الذي ندعوه الدينة.

فأشار عدنان إليّ بعينيه كمن يقول: دعه يتكلم.

فسألته: «إذن، تعتقد أن لا حاجة إلى فن؟»

فأجاب: «يتوقف ذلك على ما إذا كنت تريد المحافظة على مدنيّتكم. وكل فنان بالطبع، وكل كاتب قصة، وكل روائي، يطعن بخنجره المسموم جسم الحياة الصحيح، لأنه يخدم قضية المدنيّة. وما المدنيّة؟ إنها، كما يدل اشتقاق الكلمة، حياة المدن، والمدن تعيش على حساب الصحراء والريف وما الذي تحصل عليه في النهاية؟ هذا...» وأتى بإيماءة واسعة بيده يعني بها الجمهور الكبير في المقهى. «قاعدين على مؤخراتهم، يلغون طيلة النهار، يتململون ويسأمون، يصيبهم الإمساك، ثم تصيبهم العنة ـ والعنة متفشية فيهم حتى غدت أكثر نساء المدن أما مساحقات أو متهتكات... هذه هي المدنيّة. ثم يأتي الفنانون ويستخرجون من أمراضهم وخنوعهم أحلاماً مزوقة. أحلام؟ لا، بل قيء. أتريد حضارتكم؟ إليكم بالقيء. ها ها ها!» ونظر حوله وصاح: «بوي! ماء، ماء!» ثم أتى بشخرة عنيفة جلا فيها أنفه وحنجرته، وقذف من شفتيه كتلة كبيرة من البلغم على الأرض.

فأخذ عبد القادر غليونه من بين فكيه وقال: « أعدنا إلى سخافاتك مرة أخرى؟ ألا يكفينا أن الصحراء منذ قرون تلتهم مدننا وأراضينا الخصيبة، فتريد منا الآن أن نتوقف عن مقاومتها؟»

فأجاب توفيق: «أنا لا أريد أن تتوقفوا عن مقاومتها».

وصب له الغلام من ابريق نحاسي كأساً من الماء شربه توفيق جرعة واحدة وأردف: « كل ما قلته هو أن الفن قيء المدنيّة، لأن المدنيّة بدورها هي مرض. وكل مرة أعود فيها إلى المراعي الفسيحة

التي ترعاها عين اللّه، بين المواشي الثاغية والكلاب النابحة، ازداد يقيناً من ذلك. هل ركبت حصاناً في حياتك؟»

ـ ومن يريد حصاناً إذا استطاع أن يركب سيارة؟

ـ سيارة تشتريها من أمريكا بعرق... حين تستطيع أن تركب جواداً عربياً أصيلاً؟ هل ركبت جملاً يوماً؟ طبعاً لا. هل نمت ليلة في خيمة؟ هل صليت مرة في وسط أفق رحب كأنه دائرة الفلك حولك؟ هل قضيت في حياتك ليلة حراسة وبين يديك بندقية محشوة؟ هل عرفت غزوة؟ هل اشتركت في مخاطرة يوماً لتقصّ عنها، أو هل أصغيت إلى قصة مخاطرة ـ اصغيت إليها، لا قرأتها؟ طبعاً لا؟» وحضر شايه فشربه في جرعتين متواليتين. «تلك هي الحياة العربية الصحيحة، وليس بباقٍ سواها.» ثم ألقى عليّ نظرة نافذة وقال: «أقلت لي إنك أستاذ؟ لعل الأستاتذة الذين تلقوا العلم في الخارج لا يروق لهم رأي كرأيي. ولكنك ربما تعلم خيراً مني أن العرب ما ضاعت ريحهم إلا عندما استقروا في المدن التي فتحوها. لقد نخر في عودتهم ترف الأمم التي قهروها بيأسهم. ولكن ما الذي كان مصدر قوتهم أول الأمر؟ الصحراء. فالصحراء معقلنا وحصننا، خبزنا وماؤنا. وما الذي سيعيد للعرب إذن بأسهم ونشاطهم؟ الجواب واضح: العودة إلى الصحراء. العودة إلى خشونة الصحراء وستّتها الأخلاقية. العودة إلى الصراع بين القبيلة والقبيلة لكي نبقي على صحتنا ويقظتنا. وهناك في الصحراء لن تستخرج القصص من أحلام أفراد مخنّثين خائبين، يحسبون الحب أعظم مكتشفات الإنسان ومع ذلك لا يحصلون من ملذات الحب إلا على جلد عميرة! هاها! المعذرة عن هذا الكلام. فنحن أبناء الصحراء لا نؤمن باللف والدوران، ونسمّي الأشياء باسمائها، لأن لنا معداً قوية، ومتعتنا جسدية ومباشرة. وقصصنا هناك هي أخبار أناس حقيقيين وحوادث حدثت بالفعل. ولا يهمنا أن نسجلها في الكتب، لأنها تبقى حية على شفاهنا. أعمالنا الفنية الحية هي نحن أنفسنا، وكل ما عدانا ميت ولا قيمة له. أتعرف قصة البدوي الذي شعر مرة بدافع يحدوه إلى صنع تمثال؟ لقد أراد أن يصنع تمثالاً لامرأة ميتة كان يحبها، ولكن لم تكن لديه مواد يشتغل بها. غير أنه وجد كمية من التمر. فصنع التمثال من التمر. وجاع في الصباح التالي، فأكل التمثال! وقد أصاب في ذلك. فنحن أنفسنا يا سيدي تحف الجمال الوحيدة، والحمد للّه الفنان الأوحد.»

فانفجر عدنان بقهقة مدوية، وقال: «نحن أنفسنا تحف الجمال الوحيدة! ما أعظم خداع النفس! والمخلوقات القاطنة في أكواخ «العاصمة» تلك المخلوقات القبيحة، القذرة، الهزيلة جوعاً، هي تحف من الجمال ولا ريب!»

فتصدى له توفيق قائلاً: «مدنيّتكم هي التي حطت منهم ـ حضارتكم الكريهة.»

قال عدنان: «وسكان الأهوار في الجنوب، الذين يعيشون مغموسين في مستنقعات الأرز حتى يتساقط اللحم عن أقدامهم وكواحلهم، هم تحف من الجمال أيضاً!»

ولم يمهله عبد القادر للجواب إذ قال: «لو سمعك اعداؤنا لعشقوا كل كلمة فهت بها.»

ـ «ماذا تعني؟»

ـ «أعني أن اليهود يتمنون لو نعتقد نحن بضرورة العودة إلى الصحراء.»

فاشتعلت عينا توفيق غضباً وصاح: «يا ابن الـ... لقد رأينا أمثالكم في حرب فلسطين. ملأتم الدنيا كلاماً وتشدقاً ولكن في ساعة العمل تحجرت مفاصلكم لأن الانكليز والأميركان لم يتفقوا معكم. ولولانا نحن العشائر، لكان الانكليز ما زالوا على ظهوركم في البلد حتى الآن.»

فقال كريم: « لم يكن لدينا تنظيم سياسي صحيح، وما زلنا نفتقر إليه. ولكننا لا ندعو الناس إلى العودة إلى البراري والفلوات لندفن رؤوسنا في الرمال.»

ـ ليس في قلوبكم ذرة من الإيمان. تلك هي بليتكم. كلكم تنضحون كلاماً، ولكن لا ذرة من الإيمان فيكم ولا قطرة. تعالوا عيشوا في خيام الصحراء شهراً واحداً، أعلمكم كيف يشعر الإنسان عندما يعمر قلبه بالإيمان، وكيف يحق لكم حينئذٍ أن تفتخروا بأنفسكم هذه الصغيرة العاجزة.

لقد كان توفيق كالسلك الكهربائي المعرّض، في لمسه خطر وفي مقدوره أن يفوق كلاماً جميع من يعيّرهم هو بكثرة الكلام. وقد لاحظت أن الشباب الآخرين قد يخالفونه في الرأي، ولكنهم معجبون بفصاحته ويستمتعون بفوران حديثه ولعلهم كانوا يمازحونه ليستدرجوه إلى مثل ذلك الفوران. ولكن الساعة كانت الثامنة والثلث، وكان عليّ أن أتركهم لأبلغ بيت سلمى في الثامنة والنصف.

* * *

كان الليل قد انتصف عندما انفضّ المدعوون في بيت سلمى، فشعرت برغبة في رؤية عدنان والتحدث إليه مرة أخرى، فعدت وحدي ماشياً، والهواء البارد يهب عبر النهر بليلاً منعشاً. فلما بلغت «الكازينو» حيث تركت صحبي يتناقشون، وجدت أن المقهى قد تحول إلى مكان فسيح خال، وقد رصفت كراسيه فوق الموائد، إزاء أحد الجوانب، وأوراق الجرائد الممزقة تزحف مع الهواء عابثة على الأرض الملطخة. وكان هناك في الضوء الوحيد الباقي في أحد الأركان، بضعة رجال يتحدثون في هدوء بين أعقاب السجائر، وحسين جالساً على طرف منهم يقرأ في مجلة.

فسألته: «أين الجماعة؟»

فقال: «ذهبوا إلى «الليالي الذهبية» مع توفيق لشرب العرق.»

و«الليالي الذهبية» مقصف قريب، فمشيت نحوه، وإذا عدنان وتوفيق يخرجان منه، وهم يضحكان، وفي مشيتهما ترنح واضح.

فصاح عدنان حالما لمحني: «ها؟ أعدت من بيت سلمى؟ إيدك بالدهن!»

فقال توفيق: «لماذا؟ أصبية سلمى؟»

- في سن جدتي، أو على الأقل في سن الأربعين. ولكن إذا شددت ظهرك بسلمى الزبيدي، حصلت على ما تريد!»

فقلت: « يظهر أنك سكران.»

- سكران؟ سلمى الزبيدي ابنة خالة أُمي، وأنا أحبها واكرّمها. ولكنها حشرت نفسها في ذلك الوسط المصطنع الكريه، لتكون محاطة بمدعوين ليلاً ونهاراً فلا تتكلم إلا بالانكليزية. لقد قررت أن أزورها غداً وأخبرها برأيي فيها.

فقال توفيق: «نأخذها معنا إلى الصحراء، ونحجبها، ونبقيها في خيمة مع النسوة والماشية. ولتتكلم بالانكليزية عند ذلك إلى أن تشبع!»

- أي صحراء يا توفيق؟ حتى العرق لا يقتلع الرمال من رأسك؟

- أليست الرمال أصفى وأنظف من كل هذه البيوت المحشوة بمن فيها، والشوارع البائسة التي قضيت عمرك تتشبب بها؟

- لو تدري ما أتمناه لشوارعنا التي أعشقها، لو تدري فقط! إن ما أتمناه هو أن أراها وقد انقلبت رأساً على عقب، وبيوتنا وقد خوت، ونساءنا وقد ملأن الأزقة عربدة، والدم يجري حتى الركب. لا صحراء ولا مدن، ولا فن للشعب، ولا سياسة، ولا مباغي ولا حفلات عشاء. فوضى متضاغية، وعبد القادر يرفع غليونه من بين أسنانه الصفراء ليغبّ من بول الشعب، وسلمى تصب خمرتها الفرنسية لعشر جيف حولها، وأنا أنعب بقصيدتي الأخيرة فوق الخرائب.

كان لصوت عدنان أنين في الطريق الخالي كرنين أجراس ضخمة في وادٍ من الصخر والشوك. يتكلم وهو يدافعنا على الرصيف المشجّر، ويقف بين الخطوة والأخرى، ويرفع يده وينزلها كأن الفاظه تعلو وتهوي معها.

فقال توفيق: « والله لأُركبّنكَ فرساً، وأُحملنك بندقية وأُعلمك معنى الرجولة».

- خليت الرجولة لك ولكنك عنيد يا توفيق. تفضل عنزتك على نسائنا، ومع ذلك لا تستطيع أن تبقى بعيداً عن المومسات شهراً واحداً. تعال معي أعلمك معنى الضعف، معنى الخوف. فتعرف كيف يقطع اليأس القلب والأحشاء والدماغ. لا، لا أريد تحفك الجمالية، ولا أريد فن عبد القادر وهو يقوّد للفقراء والجاهلين. أع... أريد، أريد... السماء مطبقة على الأرض، والناس ممسكين باحشائهم يئنون، والشرطة يصوبون بنادقهم على رؤوس النساء، وأنا وأنتم فوق ركام الشوارع ننعب كالغربان...

وتدشأ مرة، وأعتذر، وتدشأ مرة أخرى، ثم أتكأ على شجرة، وقال: «وحينئذٍ... وحينئذٍ ستخلد ذكرانا الملفات السرية في ال.... أع.»

وتراشق القيء من فمه. فأمسكنا به، وقد غدا لين الجسم عاجزاً عن الوقوف، وقال توفيق: «أما قلت لك لا تكثر من العرق إذا ما كنت قد تعشيت؟»

وتقيأ عدنان مرة أخرى، وقال توفيق هامساً لي: «مسكين ما معه فلس ليتعشى عشاء مثل الناس».

ثم أجلسناه على الأرض ليستريح.

جامعة هارفرد ــ الولايات المتحدة

ذاكرة الآداب ٧: محمد القيسي

(العدد القادم)